تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

الإزدهار الإقتصادي ودوره في التطور العمراني والتركز السكاني في مدن المغرب الأوسط تيهرت أنموذجا.

Economic Prosperity And Its Role In Urban Development And Population Concentration In The Cities Of Central Maghreb , Tehert As A Model.

أ/ رشيد عبد العزيز
طالب دكتوراه
ENS Bouzareah
rachadachor@hotmail.fr

الملخّص: شهد المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة ازدهارا إقتصاديا ملحوظا بعد انتهاء ثورات الخوارج بفضل التحكم في تجارة الذهب، ومن نتائج هذا الإزدهار الإقتصادي الإهتمام بالعمران والتشييد، وإنشاء مدن جديدة أوتجديد مدن قديمة أصبحت مراكز جذب سكاني كبير خاصة الحواضر الكبرى وعواصم الدول .

الكلمات المفتاحية : المغرب الأوسط ، ازدهارا إقتصادي ، التطور العمراني والتركز السكاني. تيهرت .

Abstract:

The Islamic Maghreb in general and the Middle Maghreb in particular witnessed a remarkable economic prosperity after the end of the Khariji revolutions thanks to the control of the gold trade, and one of the results of this economic prosperity is the interest in urbanization and construction, and the establishment of new cities or the renewal of old cities that have become centers of great population attraction, especially the major metropolises and capitals of the countries that we chose Including Tehert , capital of central Maghreb, to indicate its economic growth, urban development, and its attractiveness to people from all sides.

Keywords:. Middle Maghreb, economic prosperity, urban development and population concentration. Tehart

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

مقدمة:

عرفت بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي خاصة ابتداء من القرن 2 ه / 8م ازدهارا اقتصاديا لافتا نتيجة الحركية التجارية الواسعة التي شملت مختلف السلع الواردة والصادرة من بلاد المغرب، على رأسها الذهب والرقيق. ومن نتائج هذه الديناميكية التجارية تجمع ثروات كبيرة لدى التجار والحكام، فإلى أي مدى ساهم هذا التحول في تفعيل الحركة العمرانية والتي تجلت مظاهرها في تجديد وإعادة بعث مدن قديمة، وإنشاء حواضر جديدة مثل تيهرت وبجاية ، وكيف أصبحت هذه المدن تستقطب الناس من كل الأجناس والجهات.

1- الإزدهار الإقتصادي ودوره في التطور العمراني في إفريقية والمغرب الأوسط :

إن قوة بلاد المغرب والمكانة التي وصلت إليها، ومانتج عنها من تطور في النسيج العمراني من القرن 2 إلى ق 5ه / 8 – 11 م يرتبط وثيق الإرتباط بدورها في التجارة الدولية آنذاك، فقد أصبحت تسيطر على تجارة ذهب بلاد السودان الذي لعب دور منشط الدورة الإقتصادية في حوض البحر المتوسط الذي كان محور التبادل التجاري العالمي[1] .

بعد انتهاء الصراع المذهبي في بلاد المغرب وما نتج عنه من انعدام للأمن عبر المسالك التجارية وكساد الزراعة والصناعة[2]،استتب الأمن من جديد عبر المسالك التجارية، واتّضحت معالم الخريطة السياسية لبلاد المغرب والأندلس ابتداء من النصف الثاني للقرن الثاني الهجري، فقد أسّس الأمويون خلافتهم الجديدة في قرطبة[3]، وأسّس بنو مدرار عاصمة إمارتهم الصفرية في سجلماسة[4]،وأنشأ بنو رستم عاصمة إمامتهم الإباضية في تيهرت، وبعدها الأدراسة أسّسوا دولتهم في فاس[5]،والأغالبة في القيروان[6].

ورغم الإختلاف المذهبي فقد اتبعت هذه الإمارات سياسة مسالمة وتجنّبت الأسلوب التوسعي لبسط نفوذها السياسي والمذهبي[7]، وبهذا عرف المغرب الإسلامي فترة استقرار سياسي امتد إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ساهم في تطور المسالك التجارية وأمنها [8].

ومما ساعد على الإزدهار التجاري الذي عرفته بلاد المغرب هو التحوّل الذي طرأ على المسلك التجاري القديم الخاص بتجارة الذهب والرقيق بين بلاد السودان والمشرق، وخاصة الطريق التجاري الرابط بين غانة ومصر عن طريق بلاد النوبة[9]الذي توقّف بسبب قُطّاع الطرق وكثرة عواصفه الرملية[10]،فتواترت الرياح على قوافل التجار وأهلكت الكثير منها،وكانوا يتعرّضون لاعتداءات خارجية، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة ،[11]وأصبح هذا الطريق يمرّ ببلاد المغرب[12].

كما أن المسالك وسط المغرب الإسلامي التي نقلت الذهب لم تكن أقل أهمية من تلك التي نقلته غربا من غانة إلى سجلماسة[13].

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

كان للمدن المغربية دور هام في المبادلات التجارية بينها وبين بلاد السودان بسبب ارتباطها بشبكة من المسالك التجارية، فكانت القيروان بداية الانطلاق، وسجلماسة بوابة بلاد السودان في المغرب[14].

وكانت ورجلان أهم محطة في هذا الطريق إذ تعتبر ملتقى الطرق لتجارة الذهب[15]حيث كانت تربط بين أهم أسواق المغرب التي كانت تستقبل ذهب السودان كالقيروان وتيهرت[16]. وتجمّعت عن طريق التجارة الصحراوية ثروات كبرى من الذهب[17]في مدن المغرب ساهمت في تطورها العمراني. ومما ساعد بلاد المغرب على لعب هذا الدور هو موقعها الجغرافي الذي سمح لها بتفتح تجاري وحضاري كبيرين، فمن المعروف أن الحوض الغربي من البحر المتوسط يتّصل بأوسع منطقة جغرافية تشرف على الصحراء، فبعد الواجهة البحرية، توجد الهضاب الفاصلة بين الساحل والصحراء، وكان لهذا الموقع أثر بالغ في تطور المسالك التجارية وتنوعها في كل الإتجاهات[18].

وبازدهار محطّات القوافل التي تقع على طريق تجارة الذهب والرقيق[19]، تشكّلت تجمعات سكانية في مختلف مراكز التجارة المؤسسة على طول المسالك التي كانت تربط بين الصحراء جنوبا، وموانىء البحر المتوسط شمالا من جهة، وبين الصحراء والمشرق الإسلامي من جهة ثانية[20].

2- التطور العمراني :

كان العالم الإسلامي خلال الفترة ما بين القرن 2 ه / 8 مو القرن 5 ه / 11م مسرحا لحركة هائلة من العمران وبناء المدن، وقد بدأت هذه الحركة بإنشاء مدن شهدت تطورا هائلا سرعان ماأصبح بعضها أكبر مدن العالم آنذاك كبغداد والكوفة ،والقيروان، وفاس، وغيرها من المدن التي شيّدت في المشرق الإسلامي أومغربه، وإلى جانب هذه المدن المستحدثة كان النشاط ينبعث من جديد في مراكز عمرانية قديمة سرعان ما ازداد عدد سكانها [21]، والفضل في هذا التطور العمراني يرجع إلى الإزدهار الإقتصادي والذي ارتكز أساسا على المبادلات التجارية[22].

وقد ساعد التطور التجاري لبلاد المغرب على قيام مدن استفادت كثيرا من تجارة الذهب والرقيق[23] تيهرت، التي أصبحت مخازن لبضائع بلاد السودان، وهمزة وصل بين مراكز جلب هاتين المادتين وهي السودان الغربي والدول الأخرى التي كانت تشكل مناطق إستهلاك للذهب، واستغلال للعبيد خاصة الأوربية الواقعة شمال البحر المتوسط، فكان منطلق هذه التجارة بلاد السودان عبربلاد المغرب باتجاه صقلية والمشرق الإسلامي من شواطىء إفريقية، أوفي اتجاه الأندلس وأوروبا من سواحل مضيق جبل طارق[24].

إن تجمع الثروات الذهبية في مراكز التجارة الشهيرة ببلاد المغرب أدّى إلى ازدهار عمراني كبير، برز في الفن المعماري وفي الترف الإجتماعي[25]،وكما يذكر ابن خلدون فإنّ البناء واختطاط المنازل إنّما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليهما الترف والدّعة[26].

وهذا التطور العمراني يكون حسب عمر الدولة، فإن كان عمر الدولة قصيرا توقّف العمران عند انتهائها، أمّا إن كان عمرها طويلا فلا تزال المنازل الرحيبة فيها تكثر وتتعدّد، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تبعد المسافة، كما وقع في عدة حواضر كبرى مثل القيروان والمهدية وتونس وتيهرت وغيرها [27].

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

تميّزت المدن المغربية عند تأسيسها بالبساطة، لكن ابن خلدون يُقرّ في المقدمة أنّ من خصوصيات المدينة في الإسلام تكون بسيطة في بدايتها الأولى لالتزامها بالسنّة والدين، لكنّها لا تظل كذلك إذ سرعان ما يتسرّب إليها الترف، وهو ما يفسّر تطور مظاهرها العمرانية [28]. يقول ابن خلدون:« إعلم أن الأمصار إذا اختطّت أوّلا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما، ممّا يعالى على الحيطان عند التأنّق كالرّخام والزّجاج والفسيفساء...فيكون بناؤها يومئذ بدويا فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات ..وكثرت الصنائع إلى أن تبلغ غايتها »[29].

3- نموذج مدينة في المغرب الأوسط تطورت عمرانيا بفضل الإزدهار الإقتصادي:

أولا – تعريف المدينة:

مدن بالمكان أقام به، وفلان مدّن المدائن، أي مصّر الأمصار. والجمع مدائن ومُدُن[30]. ومدّن المدائن معناه بناها، وتمدّن،عاش عيشة أهل المُدن وأخذ بأسباب الحضارة، والمدنيّة هي الحضارة واتّساع العمران، والمدينة المصر الجامع[31].

عرفت أغلب الحضارات الظاهرة المدينية، و لم تستثن منها الحضارة العربية الإسلامية. وقد ورد لفظ المدينة في عدّة مواضع في القرآن الكريم، مفرد أو مثنى أوجمع إحدى وثلاثين مرة، منها قوله تعالى:

(قال فرعون أآمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون).[32].

وقدر كّزت كتب الجغرافيين على تاريخ المدن،ويعود ذلك لاهتمامهم بالجوانب الحضارية ومراكز السلطة السياسية، ومحاور الجباية، ونقاط الدفاع والحرب، ومنابر الدين، والتجمّع السكاني، وكل ذلك يجتمع في المدن[33]. وترسّخت دعائم المدينة مع تمصير المدن الأولى سواء في المشرق أوفي المغرب[34].

وقد استخدم العرب صيغ مختلفة لتعريف للمدينة منها: المصر، وطن، بلد، حصن ،حاضرة[35]. وانطلاقا من وظائفها الأساسية التي برزت في الأمصار الأولى، ومن الإرث المديني للحضارات القديمة، حدّدها الجغرافيون العرب بكونها تجمع للحضر محاط برستاق[36]،وقائم على وجود مؤسسات، أهمها السوق والمنبر، أو المسجد والحمام، وهي بذلك تتميّز عن القرية التي لاتتوفر فيها كل هذه العناصر مكتملة، وتتميز المدينة بمواصفات حضارية، وهذا ما يؤكده القزويني: «عند حصول الهيأة الاجتماعية لو اجتمع البشر في الصحراء لتأذّوا بالحر والبرد والريح،ولو تستّروا في الخيام.. و لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو ..فأكرمهم الله تعالى باتخاذ السور والخندق، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار»[37]، غيرأنه ليس من السهل التفرقة بين المدن الكبيرة والصغيرة في كتب المسالك والرحالة[38].

وحدّد بعض الباحثين المدينة انطلاقا من عدة معايير،أهمها اتساع السور، وأهمية عدد السكان، وتعدد الوظائف[39].وأُطلقت تسمية المدن الكبيرة على المستقرات التي فاق عدد سكانها عشرة آلاف نسمة، وهي في الغالب حواضر وعواصم الدول[40]. ومن المقاييس التي وُضعت لنشأة المدينة العربية المقياس الإنشائي، حيث أن توفُّر المعطيات الجغرافية الملائمة مثل الموقع وتوفر المياه والأراضي الزراعية، ساعد على بروزها وتطورها، وساعد الأمير أو السلطان على إنشائها بطريقة إرادية، فيختار موقعها ويشرف على تخطيطها، وهذا حال تيهرت[41]وبجاية[42] ، وهي مدن

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

مستحدثة. ثم المقياس الزمني إذ فرّقت كتب المسالك بين صنفين من المدن، القديمة أو الأزلية أومدينة الأول، وشهدت مراحل تجديد وتعمير في العصر الوسيط، مثل تونس [43].وثمّة مقاييس أخرى مثل المقياس الوظيفي، كأن تكون المدينة ذات طابع عسكري (رباط) مثل رباط المنستير بإفريقية[44]، أو اقتصادي أو ثقافي،أو ديني كالمراقد المُقدسة للأئمة التي اتخذت كنواة لمدن دينية مثل كربلاء بالعراق [45].

ب- الإزدهار الإقتصادي والتطور العمراني في تيهرت :

اختار عبد الرحمان بن رستم مكان بناءعاصمته تيهرت لعدّة اعتبارات منها توفر المياه، حيث تقع بين نهرين أحدهما اسمه مينا يقع في غرب المدينة والثاني يُدعى تاتش يقع في شرقها[46]. وبسبب قربها من السهول الصالحة للزراعة وبرودة مناخها[47]بهدف تطوير النشاط الزراعي[48]، وقد وصف الإصطخري المقومات الطبيعة لتيهرت بقوله «وتيهرت مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه »[49].

كما أنّ وقوع تيهرت على الطريق الرابط بين المشرق والمغرب الأقصى، والطريق الرابط بين الشمال والجنوب، جعلها مركزا تجاريا هاما إقليميا وعالميا، إذ كانت تربط بين مسالك الصحراء وبلاد السودان على وجه الخصوص بالمناطق الشمالية خاصة الأندلس ،مرورا بعدة محطات منها سجلماسة و تاغازة،[50] ،ورجلان وتادمكة [51] وصولا إلى غانا[52]. كما كان لها اتصال بالمشرق عن طريق الصحراء مرورا بالقيروان، وطرابلس ومصر[53]. يقول ابن الصغير عن الرستميين:« واتّسعوا في البلد، وتفسّحوا فيها، وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار، واستعملت السبل إلى بلد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة»[54].

وهكذا أصبحت البضائع تُصدر من تيهرت وإليها برا وبحرا، غربا وشرقا[55]، شمالا وجنوبا، فكانت تأتيهم بضائع الأندلس، والمغرب الأقصى، والسودان الغربي[56]، وإفريقية، ومصر، وبلاد المشرق عامة، وكانت تخرج منها السلع المختلفة من خلال عدة موانئ على ساحل البحر المتوسط،[57]مثل مرسى فروخ[58]، ومرسى الدجاج[59]،وتنس وغيرها من موانئ المغرب الأوسط. وكانت أشهر السلع التي نقلها الرستميون من بلاد السودان الذهب الذي يُعاد تصديره إلى مختلف الأمصار[60]، وأيضا العبيد والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات، مقابل ما يبيعونه هناك من المنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والمواد الزراعية[61].

وقد حقّق الرستميون أرباحا طائلة من خلال اشتغالهم بالتجارة ، من بينهم الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم الذي اشتغل بالتجارة قبل توليه الإمارة، واتسعت تجارته الخارجية[62]، إلى درجة أنّه واثنين من أغنياء تيهرت كانوا يملكون من الأموال ما لا حد له، حيث كان الإمام عبد الوهاب يملك الذهب والفضة، والثاني واسمه محمد بن جرني كان فلاّحا عظيما، قُدّرت زكاته في السنة آلاف الأحمال من البر و الشعير، وقيل أندر زرعه ترى مسافة أيام كالجبال، بينما كان الثالث ويعرف بن زلغين يملك من الإبل والغنم مئات الألوف .وهذا ما يشير إليه الإمام عبد الوهاب بقوله « لولا أنا ومحمد بن جرني وبن زلغين لخرب مال المسلمين،أنا بالذهب ومحمد بن جرني بالحرث وبن زلغين بالأنعام»[63].

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

وكان للإزدهار الإقتصادي الذي بلغته تيهرت في العهد الرستمي الفضل في تطور المدينة عمرانيا، فبعد عودة إباضية المشرق لتقديم المعونة المالية الثانية لعبد الرحمان بن رستم لاحظوا تغيّرا ملحوظا على تيهرت، فعمارتها كانت زائدة[64]،ولاح عليها رونق المدينة والملك[65]، فأوّل ما بُني فيها المسجد الجامع، ثم انتشرت حوله الدور والبيوت والأسواق والفنادق التي كانت أماكن إقامة للتجار الوافدين من المناطق القريبة أو البعيدة ،وتفنّن أهل تيهرت تدريجيا في عمارتها وتنظيمها، وازيّنت بقصور مشيّدة[66]،ودور مزينة ، وأبنية مبهجة [67]وتوسّعت اتساعا كبيرا، وصارت مقصدا للناس من كلّ الجهات[68].

4- دور الإزدهار الإقتصادي في التطور العمراني و التركز السكاني المديني :

من نتائج الإزدهار الإقتصادي الذي شهدته المغرب الأوسط خلال القرون الإسلامية الأولى، بروز حركة عمرانية واسعة سمحت بإنشاء عدة مدن أضحت البعض منها من أهم الحواضر، وهذا ما جعلها منطقة جذب سكاني كبيربسبب ما أصبحت تتوفر عليه من ظروف معيشية ملائمة للإستقرار البشري.

أولا- إشكالية المسألة الديمغرافية في المصادر:

إن المسألة الديمغرافية في العصر الوسيط لاتخلو من صعوبات حتى أن الباحث فيها يكاد يُنعت بالمغامر الذي يخاطربنفسه في بحر متلاطم الأمواج[69]،من هنا يوصف الموضوع بالمشكلة لصعوبة حلّها إلى يومنا هذا[70]، حيث يواجه الباحثون المختصّون في دراسة التاريخ الديمغرافي لشعوب العالم صعوبات كثيرة ، وشكوكا خاصة بالنسبة للعصور الوسطى بسبب نقص المصادر التي تتناول هذا الموضوع [71]، لهذا فمن أكبر التحديات التي تواجه الباحث في هذا المجال هو محاولة معرفة التطورات التي شهدها النمو السكاني لمنطقة ما خلال عدة قرون، والعوامل المؤثرة في هذه الزيادة الديمغرافية أو نقصانها، خاصة إذا كانت هذه المنطقة معروفة بافتقارها للوثائق التاريخية التي تتضمن أرقاما وإحصائيات عن عدد السكان[72]،وهذه الحالة تنطبق كثيرا على بلاد المغرب في العصر الوسيط[73]، فإعادة تشكيل التطور التاريخي للسكان فيها تعاني من نقص كبير في الإحصائيات الديمغرافية الدقيقة، بسبب مرحلة طويلة من الفراغ الديمغرافي خلال الألفية الثانية للميلاد[74].

والخوض في هذا الموضوع لا يعني الدخول في افتراضات سهلة، بل لا بدّ من محاولة الإستغلال المتبصر لأدنى الإشارات والأرقام الواردة في مختلف المصادر[75]. وللأسف فإن البحث في مجال الديمغرافيا التاريخية[76]لبلاد المغرب في العصر الإسلامي[77]لا يبعث على الإطمئنان ،لأن معظم الوثائق الخاصة بتاريخ المنطقة لا تتضمّن سوى نصوص قليلة لاتساعد على إعطاء صورة واضحة عن عدد السكان[78].كما تتميّز معظم روايات المؤرخين والجغرافيين بالطابع التعميمي، ولذلك فإن تقديم أي رقم ولو تقريبيا لا يخلو من مجازفة[79]، فابن خلدون مثلا كثيرا ما يستعمل على غرار الإخباريين في تاريخ الإسلام عبارات وصفية ذات دلالة ديمغرافية غامضة غالبا ما تفيد الكثرة، أو ينتابها الشك ، ويغيب عنها اليقين ، من تلك العبارات (أمم لا تحصى)، (يُقال أن)، أو(نحو ذلك)[80]، ويصف ابن حوقل البربر من سكان المغرب بأنهم قبائل لا يلحق عددهم ولا يوقف على آخرهم لكثرة بطونهم وتشعّب أفخاذهم

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

وقبائلهم[81].وأحيانا تكون العبارات المستعملة ذات دلالة تفيد القلة، حيث يصف الإدريسي القيروان بعد الغزو الهلالي أنّ بها قوم قليلون[82]، لذلك فإن المختصّين يرون أن الحل الأنسب لمشكلة نقص المعلومات عن الأوضاع الديمغرافية للمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط ،يكمن في الإستشهاد بالنصوص التاريخية التي لها علاقة بأعمار الدول، وأهم التطورات التي تمرها من حيث أسباب نشأتها أوسقوطها واضمحلالها، والمراحل التي تمرها[83] .

ممّا لاشك فيه أن الوضعية الديمغرافية ارتبطت بالواقع الإقتصادي والإجتماعي والسياسي للشعوب، فالإزدهار الإقتصادي وتحسّن المستوى المعيشي، وشيوع الأمن وغياب الفتن والحروب، عوامل تساعد على الزيادة السكانية نتيجة نقص الوفيات وزيادة الولادات، وتكون سببا في تطور ديمغرافي ملحوظ مثلما حدث في بداية الفتح الإسلامي بعد انتهاء ثورات الخوارج، و قيام الدول والإمارات في المغرب الأوسط مثل دولة الأغالبة ،والرستميين . يقول ابن خلدون «إعلم أن الدّولة في أول أمرها لابد لها من الرفق في ملكتها، والإعتدال في إيالتها..وإذا كانت المملكة رفيقة انبسطت آمال الرّعايا، ونشطوا للعمران وأسبابه فتوّفر ويكثر النسل ..ويظهر أثر ذلك بالتدريج »[84] .

فاستقرار الأوضاع بالنسبة للرعية، واهتمام الحكام بشؤونهم، والرفق بهم، ورفع مستواهم المعيشي، هي كلّها عوامل تؤدي إلى الزيادة السكانية ، وهكذا كما ذكر ابن خلدون بعد جيل أو جيلين من حسن السياسة والرأفة بالرعايا يزدهر العمران والصنائع والإقتصاد ويكثر النسل، وترتفع الولادات بالتدريج[85]، بينما أسفرت الحروب والفتن، والمجاعات والكوارث الطبيعية، وسوء استغلال السلطة عن نقص خطير في عدد السكان[86]، حيث تدخل الدولة في الجيل الثالث والأخير من عمرها بسبب ما يسمّيه ابن خلدون الحضارة المفسدة للعمران، فترتفع الجبايات والضرائب لسد نفقات حياة الترف التي ينغمس فيها أمراء الدولة والحاشية المقربة منهم والأغنياء خاصة من سكان المدن، فتصبح هذه الضرائب الثقيلة سببا في تقاعس الناس عن العمل والإنتاج[87]،وتكون نتيجة ذلك حدوث المجاعات والأوبئة، وترتفع الوفيات بسبب كثرة السكان من جهة ، والكوارث الديمغرافية الناتجة عن اختلال الدولة ،واندلاع الفتن الممهّدة لسقوطها من جهة أخرى[88].

كما أنّ انتقال الناس من حياة البداوة إلى حياة التحضر داخل المدن ينتج عنه توفّر الظروف المعيشية الرغيدة وظهور حياة الترف ممّا يزيد في النمو السكاني، وهذا ما يؤكده ابن خلدون بقوله أن «القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد.. وربت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه فازدادوا عددا إلى عددهم»[89] . ويقول في موضع آخر«لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرفه والكسب تدعو إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر فيترلون المدن والأمصار ويتأهلون مثلما حدث في بجاية»[90]، أي يزداد عددهم.

ثانيا – التعرّف على الوضعية السكانية من خلال التاريخ الديمغرافي للمدن:

من أجل التعرف على الوضعية الديمغرافية في المغرب الأوسط ، لابُدّ من الرجوع إلى تاريخ المدن التي أُنشئت في المنطقة كتيهرت لأن المصادر التاريخية ركّزت على وصف الحياة في المدن أكثر من تركيزها على الأرياف[91].

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

نادرا ما نجد أرقاما محدّدة في المصادر عن عدد السكان في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، مثلما أورد الإدريسي عندما يتكلم عن كتامة[92] « و لم يبق من كتامة في وقت تأليفنا لهذا الكتاب إلاّ نحو أربعة آلاف رجل »[93].

يرى هشام جعيط أن عدد العرب المستقرين في بداية الفتح لا يمكن أن يتجاوز الخمسين ألف شخص، وفي العهد الأموي ثم العباسي كانت مراكز التجمعات الأكثر أهمية هي القيروان، وتونس والزاب، ومن الطبيعي أن يستقر في عاصمة الولاية عدد كبير من العرب من مختلف القبائل، وتركزت موجة ثانية خلال العهد العباسي في تونس وبلاد الزّاب خاصة[94].

لكن ممّا لا شكّ فيه أن المدينة أصبحت منطقة جذب للسكان في بلاد المغرب عامة، فالمدن التي عرفت ازدهارا إقتصاديا يلفت الإنتباه ابتداء من القرن 2 ه / 8 م، صارت تستقطب الأثرياء من البادية الذين تستهويهم حياة التّرف والرفاهية، وتوفّر الكماليات فيها، ويمثّل هؤلاء الوافدين الأغنياء نسبة كبيرة من سكّان المدن التي نشأت صغيرة ثم تطورت في القرنين 3 - 4 ه / 9 - 10 م[95]. وتكون المدينة أكثر جذبا للسكان خاصة من البادية إذا كانت عاصمة دولة جديدة مثل تيهرت لما عُرف عنها من تسامح مع أتباع المذاهب وحتى الأديان الأخرى، وتحّولها إلى قطب إقتصادي كبير في بلاد المغرب[96]، لما تتوفر عليه هذه الحواضر الكبرى من إمكانيات وظروف إقتصادية وإجتماعية، واستتباب أمني، كلّها عوامل ساعدت على الاستقرار البشري فيها.

وإذا كان تدفّق الناس في المغرب الأوسط على المدن، وانتقالهم إليها بصفة مؤقتة لتلبية إحتياجاتهم والحصول على ما يلزمهم من سلع وبضائع، أو تصريف سلعهم، مثل المزارعين الذين يأتون إلى الأسواق المقامة داخل المدينة أو خارج أسوارها لبيع منتوجاتهم الزراعية في إطار التبادل المتعارف عليه بين المدينة والبادية، فإن الكثير من الناس يفضّلون الإستقرار فيها خاصة إذا كانت ذات موقع هام مثل التجار الذين يسعون وراء تحقيق الأرباح، وهو ما توفّره لهم المدينة ، بالإضافة إلى الحياة المرفّهة داخل القصور وفي المتنزهات[97].

وتُعتبر المدينة منطقة جذب سكاني خاصة في مرحلة التأسيس، حيث تكون ورشة بناء من الناحية الإقتصادية والإجتماعية، وهناك مثل يقول: «إذا كان البناء ، كل شيء يكون»، وينطبق هذا المثل على ورشة بناء المدن المغربية التي كانت تجمع آلاف العمال الذين يأتون من كل مكان من أجل البناء السريع للمدينة، في إطار حركة سكان الأرياف نحو المدينة التي هي في طور البناء[98].

كما قد تكون الهجرة إلى المدينة بدافع طلب العلم أو نشره[99] مثل تيهرت التي كانت عاصمة المذهب الإباضي ،تجذب أتباع الإباضية من مختلف الأمصار لتعلّم أمور دينهم ، وأصول المذهب الإباضي[100].

والخلاصة أن تعمير المدينة يكون بواسطة حركة بشرية ذات اتجاه واحد، من البادية إلى الحاضرة لأن التمدن غاية البدوي[101]، بينما لا يتشوق الحضري إلى السكن والإستقرار في البادية، إلا لضرورة تدعو إليها. ويشمل التروح البدوي الذي يغذي الديمغرافية داخل المدينة، ويزيد من عدد سكانها عبر موجات متتالية كلا من الناحية القريبة من

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

المدينة، والبادية البعيدة عنها ، وهكذا يقع تحديد متواصل للتركيبة البشرية بالحواضر عن طريق هذا المعين الذي لا ينضب[102] .

ومن حسن الحظ أن المصادر الوسيطية تختزن بين طياتها بعض الإشارات الإحصائية والتقديرات اللفظية[103]عن عدد السكان في المدن، من خلال عدد الأسواق والفنادق، والمساجد، وغيرها من المرافق العمومية، مما يمكن اعتباره مؤشرات، إذا تم ضبطها وإخضاعها للنقد التاريخي، يمكن القول أنه يمكن الإقتراب أكثر من وضع آليات إن لم نقل منهجية للبحث في الديمغرافية التاريخية.

ب-الزيادة السكانية في تيهرت:

بعد تأسيسها سكنتها القبائل البربرية خاصة المناصرة للإباضية[104] التي انجذبت إليها بفضل ازدهارها الإقتصادي والعمراني،من إفريقية والمغرب الأوسط وحتى الأقصى[105] . يقول عنها البكري «..تيهرت الطيبة، التزيهة، غابت في البساتين، وجل بها الإقليم .. وهو بلد كثير الخير، رحب»[106] .

و لم يقتصر سكانها على البربر المحليين بل نزحت إليها هجرات من مختلف أمصار العالم الإسلامي، ومن مختلف المذاهب والطوائف من عجم ومسيحيين وغيرهم[107] « وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار وليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه عبد الرحمان بن رستم ، وأمانته على نفسه وماله»[108] .

أصبحت تيهرت قبلة لمختلف الأجناس والغرباء. يقول اليعقوبي في هذا الشأن «والمدينة العظمى تيهرت، جليلة المقدار، عظيمة الأمر تُسمّى عراق المغرب، لها أخلاط من الناس، غلب عليها قوم من الفُرس»[109] . وأعجبتهم أحوالها فقرّروا الإستقرار فيها، ويقول عنها البكري «وانتعش فيها الغريب، واستطابها اللّبيب»[110] إلى درجة أنّ ابن الصغير يقول:«حتّى لا ترى دارا إلاّ قيل لفلان الكوفي وهذا لفلان البصري، وهذا لفلان القروي»[111]فازداد عدد السكان فيها[112] . وكانت هناك أحياء كاملة أنشأتها بعض القبائل والجماعات فابتنت نفوسة لنفسها حي العدوة، وقامت جماعات الجند القادمة من إفريقية هربا من بطش الأغالبة ببناء حيّهم الذي أقاموا فيه وأطلقوا عليه اسم المدينة العامرة[113] .

وصلت تيهرت أوج ازدهارها في عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب، وأصبحت عاصمة بلد كثير الخير، رحب، رشيق الأسواق[114] ، فأقام الإمام أفلح خمسين عاما أميرا حتى نشأ له البنون وبنو البنين، وشمخ في ملكه، وعمرت معه الدنيا، وكثرت الأموال والمستغلات، فازداد إقبال الناس على تيهرت، وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع التجارات[115] ، وانعكس رخاء البلد على تطورعمرانها حتى ابتنى الناس القصور[116] .

خاتمة :

إن الإزدهار الإقتصادي الناتج خاصة عن الدور الهام الذي لعبه المغرب الأوسط في المبادلات التجارية العالمية من خلال تحكّمها في تجارة الذهب بالدرجة الأولى، قد عاد عليها بأرباح طائلة ساعدت على قيام حركة عمرانية واسعة،

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

أدّت إلى إنشاء أو إحياء مدن وحواضر متعددة، اخترنا منها في المغرب الأوسط تيهرت عاصمة الدولة الرستمية ، والتي سرعان ما أصبحت مدينة جذب سكاني كبير لما كانت تتوفر عليه من عوامل الإستقرار ،ومرافق وإمكانيات مادية ومعيشية تضمن لساكنيها الراحة والحياة السهلة، وظروف ملائمة للتحصيل المعرفي والديني .

***** الهوامش :**

[1]– الجنحاني (الحبيب)، الحياة الإقتصادية والإجتماعية في المغرب الإسلامي، (ق 3 – 4 ه / 9 .[10] م)، الدار - التونسية للنشر ، تونس ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1972 م ، ص 18 .

[2] – رغم أن ثورا ت الخوارج أثرت سلبا على الأوضاع الإقتصادية في بلاد المغرب إلا أنها لم تكن المسؤولة الوحيدة عن ذلك بل بل هناك عوامل أخرى منها استنزاف طاقات المغرب في الحروب الطويلة التي استغرقها عملية الفتح وما ارتبط بها من ثورات ضد الفاتحين كتلك التي قام بها كسيلة والكاهنة ، وما تمخّض عن هذه الثورات من تخريب للمزراع وإحراق الأشجار ، وليس من شك في أن سياسة بعض عمال بني أمية زاد في سوء الأوضاع .(محمودإسماعيل عبد الرزاق ، الخوارج في بلاد المغرب حتّى منتصف القرن الرابع الهجري ، ط2 ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، 1985 ، ص 271 ,

[3]– ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن الجزري) ، ج 5 ، الكامل في التاريخ ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي ، ط 1 ، دارالكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1987 م، ص 123 –المراكشي عبد الواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ضبطه وعلق على حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان و محمد العربي العلمي ، ط 1 ، مطبعة الإستقامة ، القاهرة ، 1368 ه / 1949 م ، ص 16 .

[4]– ابن خلدون ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج 6 ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ، سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1421 ه / 2000 م، ص 172– ابن عذاري(أبو العباس أحمد بن محمد) ، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، ج 1، تحقيق عواد بشار معروف ، محمود بشار عواد ، ط1، دار الغرب الإسلامي ، تونس ، 1434 ه / 2013 م ، ص 156 .

[5] – ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن محمد الفاسي) ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبارملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الصور للطباعة والوراقة ، الرباط ، 1972 م، ص 20 – ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 118 .

5–ابن إسحاق (خليل)، مختصر خليل في فقه إمام أهل الهجرة ، ج 1 ،تحقيق أحمد علي حركات ، دار الفكر بيروت ، 1995

[6] – ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 130 .

[7] – جودت عبد الكريم يوسف ، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ص 74 – حسن علي حسن ، دولة الأدارسة بالمغرب ، ص 245 .

[8]– جودت عبد الكريم يوسف ، المرجع السابق ، 190 – 191 .

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

[9] – بلاد النوبة : أرض واسعة جنوب مصر . كان عدد سكانها كبير ، معظمهم نصارى (القزويني (زكريا بن محمود) ، آثارالبلاد واخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، لبنان، بدون تاريخ ، ص 24 – 25)

[10] – ميتز (آدم)، الحضارة الإسلامية ، في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ج 2 ، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أو ريد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص 355– حسن خضيري أحمد ، علاقات الفاطيين في مصر بدول المغرب (362 – 567 ه / 973 – 1171 م) ، ط 1 ، مكتبة مدبولي ، مصر ، بدون تاريخ ، ص 97

[11] – ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي) ، صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، 1992 م ، ص 65– بن موسى جميلة ، تجارة الذهب بين المغرب الإسلامي والسودان الغربي ، من القرن الثالث إلى الخامس الهجري(9 م – 11 م) ، بحث لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي ،جامعة الجزائر ، كلية العلوم الإنسانية ، قسم التاريخ ، 2000 – 2001 م، ص 185)

[12] – ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 418 .

[13] – أودغشت : مدينة بين صحراء لمتونة جنوب موريطانيا حاليا والسودان الغربي أو غانة . استقر بربر صنهاجة الملثمين حوالي القرن 3 ه / 9 م في المنطقة ، وهم رعاة رحل اين توفرت لهم المراعي . وكانت أودغشت إحدى المحطات التجارية لصنهاجة على الحدود الشمالية لمملكة غانة . ومن أهم العوامل التي ساهمت في نمو اودغشت وازدهارها تجاريا هي : – وقوعها على الطريق الغربي الرابط بين سجلماسة وغانة – توفر هذا الطريق على الماء – كون أودغشت همزة وصل بين مناجم الملح الذي كان يُنقل إلى السودان – كون أودغشت مستودع تبر السودان – كانت بهامراكز تحويل الذهب مماساهم في ثرائها وازدهارها الحضاري – قوة حكامها (الحميري (محمد بن عبد المنعم) ، الروض المعطار في أخبار الأقطار ، حققه إحسان عباس ، ط2 ، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1984م ،ص 63 ، 64 – ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 96 – مؤلف مجهول ، الإستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية ، العراق ، 1985، ص 216 –

Lewiski (Tadeusz), le role du sahara et des sahariens dans les relations entre le nord et le sud , in histoire générale de l’Afrique , vol 3 , l’Afrique du 7eme au 11 siécle , Edicef ;Unesco , 1997 , p 304 –

البكري(أبو عبيد)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي،القاهرة، بدون تاريخ ، ص 158-159 .

[14] – ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 91.

سجلماسة : بُنيت سنة 140 ه / 758 م ، كانت عاصمة للمدراريين . تقع في الطريق الغربي المؤدي إلى غانة ، والمسافة بينها وبين غانة شهرين ، وبينها وبين وادي درعة خمسة أيام ، وبينها وبين فاس عشرة أيام ، وتعتبر من أكبر مدن الصحراء المغربية ، تبعد عن البحر خمسة عشر مرحلة، وهي مدينة سهلية ، لها بساتين كثيرة ، وتمتاز بقصورها وديارها مما جعلها مقصدا للوارد والصادر.وعُرفت بكونها أهم محطة لتجارة الذهب الذي كان يُجلب من السودان الغربي (اليعقوبي(أحمد بن أبي يعقوب)، البلدان ، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ ، ص 198 – البكري ، المصدر السابق ، ص 149 – الحميري ، المصدر السابق ، ص 192، 305 ،306 – ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 42).

[15] – تنتمي ورجلان أو ورقلة إلى ما يعرف بالقصور في الشمال الإفريقي ، وتمتد من شرق طرابلس ، ثم جنوب غرب جبل نفوسة مرورا بفريان ، يفرن ، جادو ثم كابا ونالوث . أما شمالا فتبدأ من الجنوب التونسي مرورا بقصور تطاوين ومطماطة ، لتتجه غربا نحو الجنوب الجزائري ، أي قصور وادي ريغ ، ورقلة ثم إلى الجنوب الغربي أي إلى توات ، قورارة ، تيديلكت ، ثم غربا نحو بني ميزاب ،

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

جبال عمور، والقصور إلى غاية أقاصي المغرب الأقصى . وقد لعبت هذه القصور دور المحطة التجارية للقوافل المتجهة على السودان الغربي وسوقا لبضائعها . وشكلت ورقلة وسدراتة أكبر المحطات التجارية التي عرفها المغرب الأوسط خلال العصور الوسطى ، ونقطة اتصال العديد من الطرق المؤدية على السودان الغربي ، كما اعتبرت ورقلة من أكبر الواحات الصحراوية التي كانت تسقي بالآبار الإرتوازية . وتعود أهمية ورقلة إلى موقعها الإستراتيجي بالنسبة لطريق ذهب غانة ، حيث كانت القوافل تخرج من ورقلة وسدراتة لتصل إلى توات ثم تتوجه نحو تادمكة وأخيرا جاو . ومن أهم المناطق التي كانت تتصل بغانة مرورا بورقلة مدينة تيهرت ، إضافة إلى مدينة سجلماسة .

Gaudio(Atillio) , Les civilisations du Sahara ,marabout univérsité , Editions Gerard , Verviers , 1967, p 201

بن موسى ، المرجع السابق ، ص 207

[16] –ابن حوقل ، المصدر ، ص 42 .

[17] – تذكر الأستاذة جميلة بن موسى أن كميات كبيرة من ذهب السودان كانت تُنقل نحو المغرب والعالم الإسلامي. ومن الباحثين الأجانب الذين حاولوا إعطاء أرقام عن كميات الذهب التي كان السودان الغربي يستخرجها من مناجمه ويصدرها إلى المغرب الإسلامي موريس لمبار ، مونيي وغيرهم من خلال مقارنة بين ما كان يُستخرج من مناجم السودان من الذهب في القرون المتأخرة ، وما كان يستخرج منها في القرون الإسلامي الأولى .(بن موسى ، المرجع السابق ، ص 166 – 167).

[18] – الجنحاني ، المرجع السابق ، ص 16 .

[19] – لمبارموريس ، الإسلام في مجده الأول من القرن 2 إلى 5 ه (8-11م) ، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، المغرب، 2003 م ، ص 207 .

[20] – الجنحاني ، المرجع السابق ، ص 16 .

[21] – لمبار ، المرجع السابق ، ص 183 .

يمكن تمييز أربع حالات عند انتقال المدينة من نسيجها القديم إلى نمطها الإسلامي وهي : – المدينة القديمة تتحول إلى مدينة إسلامية مثل ما هو عليه حال قسنطيمة وسطيف – بناء مدينة حديثة (إسلامية) بجانب المدينة القديمة لتصبحا مكملتين لبعضهما كما هو الحال بالنسبة لتيهرت وبونة وتنس – هجران المدينة القديمة وبناء مدينة حديثة بجانبها كما هو حال المسيلة ، المدية وملیانة– بناء مدينة حديثة إسلامية خاصة مثل حال القيروان ، فاس والقلعة .(علاوة عمارة ، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الساحة المركزية ، بن عكنون ، الجزائر ، 2008 م ، ص 139.

[22] – مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص 130 .الحميري ، المصدر السابق ، ص 81 .

[23] – أصبح الرقيق يلعبون دورا هاما في المجتمع المغربي نظرا لما حققه المغرب الإسلامي من رفاهية وتطور بعد أن أمطرت عليهم سماء السودان الذهب الخالص حيث تنافس التجار خاصة اليهود على اقتناء أحسن العناصر البشرية التي كانت تمثل العبيد السود خاصة أودغست التي كان يجلب منها سودانيا ت طباخات محسنات تباع الواحدة منهم 100 دينار أو أزيد على حد تعبير كتاب الإستبصار(مجهول ،الإستبصار . ص 216). ومن بين الأسباب التي أدت إلى انتشار تجارة العبيد في المغرب الإسلامي انخفاض أسعارهم لصبح سجلماسة وورجلة أهم المراكز التي اسقبلت خصي العبيد قبل تسويقهم إلى داخل وخارج المغرب (جودت عبد الكريم يوسف ، المرجع السابق ، ص 228 – أنظر بن موسى ، المرجع السابق ، ص 175).

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

[24]– الجنحاني ، المرجع السابق ، ص 17 .

[25]– الجنحاني ، المرجع السابق ، ص 42 .

– ابن خلدون ، المقدمة ، ضبط المتن والحواشي والفهارس خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار،دار الفكر للطباعة والنشروالتوزيع [26]

بيروت ، لبنان ،2001، ص 342.

[27] – نفسه ، ص 343 .

[28]– غوردو عبد العزيز ، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب جدلية التمدن والسلطة ، ط 2 ، المكتبة الوطنية الكويتية ،2011 م، ص 67 .

[29]– ابن خلدون ، المقدمة ، ص 359.

[30]– ابن منظور،(محمد بن مكرم الإفريقي) ،لسان العرب ، ج 13 ، دارصادر، بيروت ، 1984 م، ص 402 .

[31]– ابراهيم أنيس وآخرون ، المعجم الوسيط ، ط 4 ، مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية ، 2004، ص89 – أحمد رضا معجم متن اللغة ، ج 5 ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1339 / 1960 م ،ص 264

[32] – سورة الأعراف : الآية 123 .

[33] – شاكر(مصطفى)، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني ، ط2 ، مكتبة الأسد ، سوريا ، 1997 ، ص 47

[34] – السبتي (عبد الأحد) و فرحات(حليمة)، المدينة في العصر الوسيط (قضايا ووثائق من تاريخ المغرب الإسلامي)، ط 1 ، ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1994 ، ص 5

[35]– ناجي(عبدالجبار)، دراسات في تاريخ المدن الإسلامية ، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع ، بيروت ، 2001 ، ص59 .

[36]– الرستاق : كلمة فارسية،ومعربها الرزداق، وجمعها الرزداقات والرزاديق ، وهي القرية أو محلة العسكر أو البلد التجاري (عمارة محمد ، قاموس المصطلحات الإقتصادية في الحضارة الإسلامية ، ط 1 ،دار الشروق ، القاهرة ، بيروت ، 1413 ه / 1993 م ، ص 248)

[37] – القزويني ، المصدر السابق ، ص 7 .

[38] – محمد حسن، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي ، ج 1 ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية ، جامعة تونس الأولى ، 1999 م ، ص 56 .

[39] – الهذلول (صالح بن علي) ، المدينة العربية الإسلامية ، أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية ، 1994 ، ص 19

[40]– عثمان محمد عبد الستار ، المدينة الإسلامية ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، 1988 ، ص 95 – 96 .

[41] – وقوع تيهرت في سفح جبل على نهرين ، تاتش ومينا كان من بين أسباب اختيار عبد الرحمان بن رستم لها واتخاذها عاصمة لدولته الجديدة (البكري ، المصدر السابق ، ص 66 – الجنحاني ، المرجع السابق ، ص105).

[42] – أسسها الناصر بن علناس الحمادي (الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت ،معجم البلدان، ج 1 ، دار صادر، بيروت ،1977 م ، ص 339 .

[43] – البكري، المصدر السابق، ص 37 – الإدريسي، المصدر السابق، ص 111 .

[44] –. ابن حوقل، المصدر السابق، ص 74 – البكري ، المصدر السابق ، ص 36 .

[45] – الموسوي(مصطفى عباس) ، العوامل التاريخية لنشأة وتطورالمدينة العربية الإسلامية ، بغداد ، 1982 ، ص 159

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

[46]– البكري ، المصدر السابق ، ص 66 –

[47] – الحموي ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 8 .

[48]– الجنحاني ، المرجع السابق ، ص 105 .

[49] – الإصطخري (أبو إسحاق ابراهيم بن محمد الفاسي)،المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابرعبد العال الحيني ومحمد شفيق. غربال ، دار القلم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 34 .

[50]– الطريق الذي يربط سجلماسة بأودغشت مرورا بتاغازة ، ومن مميزاته أنه يمر بسبخة الملح المشهورة بتاغازة ، والتي يتزود منها التجار بالملح الذي يستبدلونه بذهب السودان (شنايت العيفة ، دولة بني مدرار سجلماسة ودور تجارة القوافل في ازدهارها الحضاري رسالة ماجستير ، 1990-1991 ، ص142).

[51]- Lewincki , Etudes maghrébines et soudanaises , p 13

[52] – بن موسى ، المرجع السابق ن ص 196 .

[53]– بن قربة وآخرون ، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط ، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، ا الجزائر ، 2007 ، ص 66 – الحريري(محمد عيسى) ، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي (حضارتها وعلاقاته الخارجية بالمغرب والأندلس) ، ط 2 ، دار القلم للنشر و التوزيع ، مصر ، 1403 ه / 1987 م، ص 192 – 193 .

[54] – ابن الصغير المالكي ، أخبار الأئمة الرستميين ، تحقيق وتعليق محمد ناصرو ابراهيم بحاز ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1986م ، ص 56 .

[55]– نفسه ، ص 32 .

[56]– نفسه ، ص 80 .

[57]– مبارك بن محمد الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، تقديم وتصحيح محمد الميلي ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،بدون تاريخ ص 75 – 76 .

[58] – الإدريسي ، المصدر السابق ، 198 .

[59] – البكري ، المصدر السابق ، ص 63 – الإدريسي ، المصدر السابق ، ص 89

[60]– زغلول (عبد الحميد) ، تاريخ المغرب العربي ، ج 3 ، مكتبة نشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1990 ، ص 374 .

[61] – البكري ، المصدر السابق ، ص 67 – القزويني ، آثار البلاد ، ص 169 – الحميري ، المصدرالسابق ، ص 126– الحموي المصدر السابق ، ج 2 ، ص 8

[62]– الحريري (محمد عيسى)،المرجع السابق ، ص 234.

[63] –الشماخي(أحمد بن سعيد بن عبد الواحد)، كتاب السير، ج 1 ،تحقيق أحمد بن سعود السيابي، سلطنة عمان ،1407ه / 1987 ، ص 176 – 177

[64] –ابن الصغير، المصدر السابق ، ص ص 32، 35.

[65] – الباروني(سليمان باشا)، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، مراجعة محمد علي الصلابي ، ط 1 ،دارالحكمة ، لندن ، 2005 ، ص 143 .

[66] – ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص 33 .

[67]– الباروني ، المصدر السابق ، ص 143 .

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

[68]– ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص 56 – الحريري ، المرجع السابق ، ص 99 .

[69] – هناك صعوبات كبيرة تعترض المؤرخ الديمغرافي في استغلال المصادر التاريخية حيث يشير عبد الحميد حدوش إلى أن الدراسات التاريخية تمنح الأولوية للحدث السياسي على حساب التاريخ الإقتصادي والإجتماعي ، وبالأخص منها المواضيع الديمغرافية ، بالإضافةإلى صعوبة التكميم بالنظر إلى قلة المعطيات الرقمية في المصادر على اختلاف أنواعها ، كما أن المادة التاريخية المستخلصة تتميز بالتقطع الزماني والمكاني (عبد الحميد حدوش ، معوقات الإنتقال الديمغرافي في العالم العربي خلال القرن 18 : المغرب نموذجا ، ورقة مقدمة في المؤتمر العالمي للسكان ، مراكش ، 2009).

[70]– الطويل (محمد حجاج) ، المسألة الديمغرافية : نحو منهجية ديمغرافية ، محاولات إحصائية ، العصر الوسيط نموذجا ، مجلة كنانيش ، العدد 1 ،منشورات كلية الآداب ، وجدة ، المغرب ، 1999 ، ص 19 .

[71] – Noel biraden(Jean) , essai sur l’évolution du nombre des hommes .in population 34 eme année , n 1 , 1979 , p 13

[72] – نقص الوثائق التاريخية التي تتضمن إحصائيات عن عدد السكان في بلاد المغرب الإسلامي رغم تنوع مصادرالمادة المعرفية التي يمكن الرجوع إليها من قبل الباحث في التاريخ الديمغرافي للمغرب الوسيط . وتتمثل في كتب الأنساب ، الطبقات ، التراجم ، الوفيات ، كتب النوازل الفقهية ، سجلات الخراج و الضرائب ...إلخ (محمد حالي ، الديمغرافية التاريخة للمغرب الوسيط من خلال تاريخ ابن خلدون ، أكاديمية الجهة الشرقية ، المغرب ، ص 58 .)

[73]– يرجع تاريخ الإحصائيات الأولية للسكان فيها إلى نهاية القرن التاسع عشر للميلاد ولهذا فمن الصعوبة بمكان التعرف على الديمغرافية للمنطقة خلال القرون الوسطى انطلاقا من مصادر حديثة .وقبل ظهور الإحصائيات السكانية المعاصرة شهدت معظم الحضارات عمليات التعداد السكاني ، و أولى العمليات التعدادية تعود إلى الحضارة السومرية خلال الألفين 4 و 3 قبل الميلاد . وفي بداية الدولة الإسلامية يمكن اعتبار نشأة الدواوين منذ فجر الإسلام إرهاصات مبكرة لظهور التعدادات . وعندما عزم عمر بن الخطاب على فرض العطاء لمستحقيه أمر بإحصاء الناس لكي يتم توزيع الأموال الفائضة في بيت المال فبدأ بقرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم الأقرب فالأقرب .(أحمد مصطفى أبو ضيف ، دراسات في تاريخ الدولة العربية ، ط 1 ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ، 1948 ، ص 422 – 423).

[74] – Tabutin(Dominique) , vilquin(Eric), Noel Biraben,l’histoire de la population de l’afrique du nord ,univérsité catholique de Louvain , Belgique , INED , Paris , France , p 15 .

[75]– تعددت المصادر الأساسية للديمغرافيا التاريخية في العالم الإسلامي حيث أن كل المصادر التقليدية ، بما فيها كتب الأنساب والطبقات والتراجم والوفيات ، وكتب السيرة والمغازي والتاريخ العام وكتب الحديث وأدب الرحلات ، وكتب النوازل الفقهية وسجلات الخراج والضرائب ، ومختلف العقود ذات الصلة بالمواريث والبيوع والأحوال الشخصية ، توفر للباحث في هذا الحقل المعرفي الجديد صنوفا من المعارف السكانية التي تتصل بشكل أو بآخر بالأحداث السكانية المختلفة كالزيجات والولادات والخصوبة والوفيات والهجرات السكانية – محمد حالي ، تطور الديمغرافية التاريخية في سياق التاريخ الجديد ، مجلة كان التاريخية ، دورية إلكترونية محكمة ، متخصصة في الدراسات التاريخية ، شعبان 1435 ه /2014 م ، العدد24 ، ص 58).

[76] – نشأ علم الديمغرافية التاريخية كعلم حديث فيفرنسا في خمسينات القرن العشرين على يد لوي هنري ، وهو علم يحاول فهم

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

فهم التاريخ من خلال معرفة عميقة بالسكان من حيث العدد ، والقوة الناشطة والعاطلة ، والمستهلكين ، وغيرها من الأمور المرتبطة بالسكان (مصطفى نشاط ومحمد إستيتو نور الدين المودان ، الديمغرافيا في تاريخ المغرب، مجلة كنانيش ، متخصصة في الديمغرافيا التاريخية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، وجدة ، المملكة المغربية ، العدد الأول ، 1999 ، ص 14). وتتقاطع الديمغرافية التاريخية مع الديمغرافية من حيث الموضوع والمنهج ، فهي تنقل المنهج الديمغرافي وتحاول تطبيقه في دراسة التاريخ الديمغرافي لساكنة معينة في تاريخ معين ، وموضوعها هو موضوع الديمغرافية (أي السكان ومايرتبط بهم من الظواهر)، إلا أن الإختلاف الأساسي بين التخصصين هو كون الديمغرافية التاريخية تدرس الخصائص الديمغرافية للسكان وترصد تغيراتها في الزمن الماضي .ومن هنا تختلف مصادرها وتقنياتها ومناهجها بالضرورة عن مثيلاتها في الدراسة الديمغرافية الآنية ، مع حضور مناهج التقدير الكمي في كل منهما (القاسمي فخر الدين ، الديمغرافية التاريخية ، دراسة حالة المغرب الوطاسي ، الجوار المتمدن ، العدد 5596 ، 2017).

[77] – لم يهتم المسلمون مشرقا ومغربا بضبط تواريخ الأحداث السكانية إذ لم يكن الوعي بتدوين المعطيات السكانية لذاتها أو لأغراض إحصائية حاضرا لديهم ، وإنما كان يتم تسجيل ما يتعلق بالولادات و الوفيات والأنساب عند الحاجة في مجالات إجتماعية وعلمية غير ميدان السكان ، كدراسة عدالة الرواة ، ومعرفة وفيات العلماء ، وتنظيم أنساب القبائل ، وضبط التنظيم الإداري والمالي للدولة الإسلامية بوضع سجلات الدواوين كديوان الجند والخراج ..فكثيرا ما نقرأ في الأخبار أن فلانا ولد عام كذا وكذا ، فكانوا يؤرخون بعض الأحداث السكانية بالوقائع الكبرى والحوادث التي تحفظها ذاكرتهم الجماعية ، وفي معظم الحالات بعد مرورر الوقت على الظواهر والأحداث السكانية المعنية (مختار محمد ، المعسول ،ج 14 ،مطبعة النجاح الجديدة ، الدارالبيضاء ، 1961 – 1962 ، ص 109 .)

[78]– على عكس علم الديمغرافية الذي يعتمد على مصدرين هامين هما الإحصاءات السكانية وسجلات الحالة المدنية فإن الديمغرافيا التاريخية لا تتوفر إلا استثناء على مصادرإحصائية موثوقة ودقيقة ، لهذامن الضروري أن يلجأ الباحث في تاريخ الديمغرافيا إلى مصادر خاريجة لم تكتب أساسا لأغراض علمية كسجلات الكنائس في أوربا ، والزيجات والدفن ، وعقود الزواج ، وسجلات الضرائب . وهذه الوثائق تجبرالمؤرخ على التعامل معها بحذر شديد لعدة أسباب ، أهمها عدم دقة البيانات المسجلة ، وحتى يتفادى المؤرخ النقائص والثغرات يلجأ إلى تعدد الوثائق من مصادر أخرى .

[79]– بوتشيش(إبراهيم القادري) ، مباحث في التاريخ الإجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين ، دار الطليعة والنشر، بيروت ، بدون تاريخ ، ص 54 .

هناك إشارات عددية لكنها قليلة نجدها متناثرة بين طيات المصادر مثلما أورده البكري عن عدد سكان الغدير بالمغرب الأوسط الذي يقدرهم بستين ألف ، وكان مجمع الواصلية قرب تاهر ت عددهم نحو ثلاثين ألف (البكري ، المصدر السابق ، ص 60 ، 67)

[80] – حالي(محمد) ، الديمغرافية التاريخية للمغرب الوسيط من خلال تاريخ ابن خلدون ، ص 2013.

[81]– ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 97 .

[82] – الإدريسي (الشريف)، الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ج 1 ،مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1422 ه 2002م ، ص 284,

[83] – بوتشيش، أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديمغرافي بالمغرب الوسيط (دراسة حالة) ، الديمغرافيا في تاريخ ، مجلة كنانيش ، 1999م ، العدد الأول ، ص 45 .

[84] – ابن خلدون ، المقدمة ، ص 301 .

[85] – محمد حالي ، المرجع السابق ، ص 74 .

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

يستفيد الباحث في الديمغرافيا التاريخية للمغرب الوسيط من التنظيمات التي أوردها ابن خلدون في علاقته بموضوع العمران البشري وتطوره . ومن جملتها المقارنة التي يجريها بين العمر الطبيعي للدولة وعمر الأشخاص . ويشير في هذا الصدد أن الدولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص ، وأن عمر الدولة لايعدو في الغالب ثلاثة أجيال .(محمد حالي ، المرجع السابق ، ص 72 – ابن خلدون ، المقدمة ، ص 170).

[86] – بوتشيش ، المرجع السابق ، ص 54 .

[87] – ابن خلدون ، المقدمة ، ص279 .

[88] – محمد حالي ، المرجع السابق ، ص 74 .

[89] – ابن خلدون ـــ، المصدر السابق ، ص 174 .

[90] – نفسه ، ص 343 .

تاريخ بلاد المغرب خلال العصر الوسيط هو تاريخ مدن بالدرجة الأولى بحكم ان المصادر لأساسية وخاصة كتب الرحالة والجغرافيين ركزت اهتمامها على الأوضاع السائدة داخل هذه المدن ، وعلاقتها بالمناطق المحيطة بها من قرى وأرياف .

[92] – كتامة : قبيلة من قبائل البربر البرانس أهل المدر المستقرين .مواطنهم أرياف قسنطينة وشرق المغرب الأوسط من جبال أوراس جنوبا إلى البحر ما بين بونة وبجاية . تشيع أهلها وساعدوا عبيد الله المهدي في تأسيس الدولة الفاطمية ، وساهموا في توسعاتها ، وأصبحوا عصب دولتها (ابن خلدون ، ديوان العبر ، ج 6 ، ص 192 – 196)

[93] – الإدريسي ، المصدر السابق ، ص 99 .

[94] –جعيط (هشام) ، تأسيس الغرب الإسلامي ، – القرن الأول والثاني ه / السابع والثامن م ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط 1 ، 2004 ، ط 2 ، 2008 ، بيروت ، لبنان ، ص 152 – 153 .

[95] – يقول ابن خلدون أن: « طور الدولة من أولها بداوة ، ثم إذا حصل الملك تبعه الرفه ، واتساع الأحوال ، والحضارة إنما هي تفنن في الترف ، وإحكام الصنائع المستعملة ، ووجوهه ومذاهبه من المطابخ ، والملابس ، والمباني ، والفرش ، والأبنية ، وسائر عوائد المترل ، وأحواله ، فلكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه ، تختص به ، ويتلو بعضها بعضا وتتكثر باختلاف ما تترع إليه النفوس من الشهوات والملاذ ،والتنعم بأحوال الترف ، وما تتلون به من العوائد ، فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة لضرورة تبعيةالرفه للملك» .(ابن خلدون ، المقدمة ، ص 172) .

[96] – ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص 31 .

[97] – ابن خلدون ، المقدمة ، ص 172 .

[98] – Lombard (Maurice), l’évolution urbaine pendant le haut moyen age , article dans annales économies , sociétés , civilisations , 12 eme année , n 1 , 1957 , p 20 - 28

[99] – جودت عبد الكريم يوسف ، المرجع السابق ، ص 433 .

[100] – نفسه .

[101] – ابن خلدون ، المقدمة ، ص 172 .

[102] – محمد حسن ، المرجع السابق ،ج 1 ، ص 94 .

[103] – وردت مؤشرات كثيرة في المصادر التاريخية خاصة كتب الرحالة والجغرافيين يمكن اعتبارها كمعايير لتكوين تصورأن نظرة

تاريخ الإرسال: 2021/12/03 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 28 /2021/12

ولو بسيطة عن حجم وعدد السكان في المغرب الإسلامي . ويمكن تصنيفها إلى : 1-مؤشرات معمارية وعمرانية : مثل عدد القبائل ، والمدن ، والقرى ، وباقي التجمعات السكانية كالقلاع والحصون ، المداشر. أيضا مساحة المدن وطول أسوارها وعدد أبوابها ، وتعدد مرافقها العمومية مثل المساجد والحمامات والفنادق والاسواق ، وتعدد أزقتها ودروبها ، واحيائها . ومن بين المؤشرات المعمارية أيضا تعدد مصادر المياه ، وتنوع وسائل تزويد السكان بالمياه . كذلك الأراضي الفلاحية من حيث أنواعها ومساحتها ، وطرق استغلالها . ونسبة استهلاك المواد الغذائية مثل الحبوب واللحوم والزيوت وغيرها . 2 – مؤشرات إحصائية مثل الضرائب والجبايات بجميع انواعها ، ومقدارها ، وعدد الناس المفروضة عليهم .3- مؤشرات تقديرية وكمية ، وتميزت غالبا بطابع التعميم مثل ما أرده بن خلدون عن القبائل البربرية التي يقول عنها أن المصامدة أمم لا يحصيهم إلا خالقهم .. (حجاج الطويل ، المرجع السابق ، ص20 – 22).

[104] –الجنحا ني ، المرجع السابق ، ص 111 .

[105] Lewicki , Etudes maghrébines et soudanaises , Académie polonaise de science – comité des études orientales , Varsovie , 1976 , p 12 .

[106] – البكري ، المصدر السابق ، ص 74.

[107] – لمبار ، المرجع السابق ، ص 219 .

[108] –ا بن الصغير ، المصدر السابق ، ص 31 .

[109] – اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص 192 .

[110] – البكري ، المصدر السابق ، ص 74 .

[111] – ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص 36 .

[112] – ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص 86 .

[113] – الحريري ، المرجع السابق ، ص 149 .

[114] – المقدسي ، المصدر السابق ، ص 228 .

[115] – ابن الصغير ، المصدر السابق ، ص 53

[116] – نفسه .